الفصل الثانى

المشرق الإسلامى
والحضارة العربية الإسبانية

اتخذ **الأندلس**، وقد امتدت وديانه الضاحكة، واستطالت قممه الجرداء القاحلة، فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى، بالضرورة وعلى نحو طبيعى، صورةَ مقاطعة لا مركزية، منذ اللحظة التى ضمه فيها العرب إلى أملاكهم، وكان بالتالى، وربما أكثر من أى بلد عربى آخر، ضعيف الاستجابة للاستقرار، أو الحفاظ على علاقات ثقافية نشيطة مع دمشق، عاصمة خلافة بنى أمية أولا، أو مع بغداد من بعد، عاصمة خلافة بنى العباس.

ولما كانت إسبانيا الإسلامية تقع مباشرة على تخوم عالم مختلف فى الشمال فقد اضطر الإسلام إلى أن يكبح جماح اندفاعه إلى الأمام، وإلى جانب أنها تجاور فى الجنوب مكانًا جعلت منه الظروف شيئًا خطرًا، إذ كان من الضرورى للوصول إليها أن يركب المرء السفينة، وأن يعبر المضيق، قبل أن تطأ أقدامه أرضها. وعبور البحر مهما كان ضيقًا مشكلة بالنسبة للعرب، على الأقل فى

القرنين الأول والثانى للهجرة، السابع والثامن الميلاديين، وحلها أصعب من عبور الصحراء الشاسعة، من أدناها إلى أقصاها. ومن هنا كان الحذر الذى يتجلى فى الأمر الذى أصدره الخليفة **الوليد بن عبدالملك** إلى قائده **موسى بن نصير**، حين كتب هذا إليه يستأذنه فى الفتح: «خُضْها بالسرايا حتى تختبر شأنها، ولاتغرّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال».

إلَّا أن التقدم الذى حققَّه المسلمون سريعاً فى فن الملاحة أتى على دوافع هذه المخاوف الموهومة، وحينئذ بدأ المشرق ينظم جملة من المعلومات الجغرافية، أو المتصلة بالطرق، تتعلق بإسبانيا، ومجرد وجودها يبرهن لنا على أن العلاقات بدأت مبكرة فى مختلف المجالات، وفى حقل الصلات التجارية بخاصة على التأكيد، بين جانبى البحر الأبيض المتوسط.

وكان المشارقة أول من خص إسبانيا الإسلامية بأبحاث جغرافية، ربما كانت مسرفة فى الإيجاز، ونُقلَتْ فى جانب كبير منها عن آخرين؛ إلا أن مصدرها يجعلها هامة بالنسبة لنا على نحو خاص. وأقدمها ما قام به الفارسى **ابن خرداذِبه**؛ وليست قبل عام ٢٣٠ هـ= ٨٤٤م، وبالتأكيد أقل دقة من الأبحاث التى قام بها المؤلفون اللاحقون، أمثال **اليعقوبى** و**المقدسى**، ومع ذلك فالصورة التى قدمها لنا الجغرافى **ابن حوقل** أصدق تمثيلا من غيرها، ولو أنها قدمت لنا موقفاً أقل تعاطفاً مع المقاطعة القديمة لخلفاء المشرق،

وقد أصبحت إمارة مستقلة على رأسها أمير أموى. لقد زار ابن حوقل إسبانيا الإسلامية شخصيًا، وربما كان يقوم بالتجسس لحساب الفاطميين أو العباسيين، وأقام فى قرطبة بعض الوقت على أيام عبد الرحمن الناصر، أى حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى.

أورد لنا ابن حوقل طائفة من المعلومات الدقيقة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى إسبانيا الإسلامية، مما يعطى وصفه لها قيمة كبيرة، ونجد فى كتابه قائمة لا بأس بها بالمنتجات العديدة التى كان يصدرها الأندلس لا إلى المغرب فحسب، وإنما إلى مصر أيضاً، ومعلومات مفصلة ومثيرة عن تجارة الرقيق، أو الصقالبة بلغة ذلك العصر، فى أوربا، وكان يحملهم إلى إسبانيا الإسلامية تجار تخصصوا فى هذه المهنة، ويقومون بتوزيعهم على الموانئ الرئيسية فى شواطئ الأندلس، وعلى دول شرقى البحر الأبيض المتوسط.

على أن ابن حوقل، ولا يمكن أن نشك فى حياده، لم يكن رأيه فى سكان مملكة قرطبة مرضياً، فهو يعجب من بقائها «على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال». ومع ذلك أُخِذَ بالازدهار الاقتصادى الذى تعيش فيه، وضخامة الثروة التى بين يدى

الناس، وحجم الضرائب الذى يعود على الدولة، ولم ير ما يعدلها إلاَّ ثروة الحمدانيين فى حلب، وأخيراً أنصف قرطبة العاصمة فى بهائها فرآها بغداد الثانية، وأعجب بمدينة الزهراء الملكية، وبفخامة وثراء حى الخاصة فى ضاحية الرصافة.

* * *

وهذا الاسم الأخير، أى **الرصافة**، يثير فى النفس عندما يرن فى السمع، ذكرى مقر الإمارة الشهير فى تدمر Polmyréne والأيام الجميلة للخلافة الأموية فى دمشق، ولم يكن اختيار هذا الاسم الذى أطلق على سلسلة من القصور أقيمت على نفس أبواب قرطبة، وليد الصدفة البحتة أو مجرد اتفاق، وإنما كان **عبد الرحمن الداخل** نفسه هو الذى أطلقه على إحدى منشآته المفضلة، ليحتفظ على هذا النحو بذكرى الوطن الذى اضطر إلى مغادرته، والعرش الذى أُقْصِىَ عنه بشراسة، فى البلد الذى هاجر إليه، وأسس فيه إمارته، وهى إشارة قوية الدلالة، إن لم تكن ثمة أسباب أخرى غيرها، على وجود «تقاليد سورية» تأصلَّت فى إسبانيا، فى اللحظة التى كان فيها أمير أموى قادم من المشرق، يقيم مملكته على أرضها.

والحق أن هذا «التقليد السورى» عبّر عن نفسه على أرض شبه جزيرة إيبريا قبل ذلك بوقت كاف، واجتهد الولاة العرب المختلفون، وكانوا يتبعون الخلافة المشرقية نظريًّا، فى الحفاظ

عليها، واحداً وراء آخر. وعندما عبر الجند المشرقيون إلى إسبانيا بقيادة بلْج بن بِشْر القشيرى، فى ظروف مفاجئة، وانتشروا هنا وهناك بعيداً عن قرطبة نفسها، وبخاصة فى شرق وجنوب الأندلس، واستطاعوا أن يجدوا فى إسبانيا ملاذاً بعد مغامرة ذائعة الصيت، واستقروا فيها عام ١٢٥هـ = ٧٤٢م، أتاحت هذه المناسبة غير المتوقعة للتقاليد السورية أن تنتشر فيما وراء قرطبة أيضاً.

لقد أقطعت الدولةُ هؤلاء الجند، مكافأة على خدماتهم الحربية، أراضى فى أهم الكور المحاذية لشواطئ البحر الأبيض المتوسط، وأعطوها أسماءهم. وفى نطاق هذه الظروف استقر جند الشام حول إلبيرة Elbira، قريباً من غرناطة Granada وجند الأردن فى كورة مالقة Mâlaga، وجند فلسطين فى كورة شذونة Sidona، وجند حمص فى كورة إشبيلية Sevilla، وجند قنسرين فى جيان Jaén، على حين استقر جند مصر فى باجة Beja، فى جنوب البرتغال الآن، وفى كورة مرسية(١)، ومنذ ذلك الحين نمت مدن الأندلس الرئيسية، وانضمت إليها عناصر جديدة من السكان، شكلت لوناً من طبقة حربية، ذات أصول عربية خالصة، تعيش على دخولها الواسعة، من إقطاعاتها الضخمة فى الريف، ويقوم على فلاحتها مزارعةً فلاحون من سكان البلد الأصليين، سواء ظلوا على مسيحيتهم أم اعتنقوا الإسلام من قريب.

وكانت هذه الأرستقراطية الحربية سوريةً، فى الجانب الأكبر منها، وهو ما يسمح لنا بأن نؤكد، وبحق، أن الأسماء الجغرافية التى جعلوها تتغلب فى محال إقامتهم الجديدة، إلى جانب أسماء البلاد الأيبرية القديمة، كانت تشكل بالنسبة لهم لقباً من ألقاب الشرف، ومبدأ من مبادئ التضامن[٢].

لدينا براهين عديدة على اهتمام عبد الرحمن الداخل، مؤسس المملكة العربية فى إسبانيا، حول منتصف القرن الثانى للهجرة تقريباً، اهتماماً مستمراً ببناء الدولة، وإطاراتها الاجتماعية، على نفس الصورة السورية خلال الحكم الأموى هناك فى دمشق، وبهذه الطريقة دعم تقليداً كان مشرقياً خالصاً. ومن جانب آخر، وكان تشابه الظروف الجغرافية بين البلدين يعاونه على تحقيق رغبته هذه، أتاح الفرصة، كما هو متوقع، للعديد من المشابه الأدبية، والشعر من بينها بخاصة. فالمزارع الخضراء فى الريف الأندلسى تشبه الغوطة الوارفة على مشارف دمشق، ومن هنا كانت ذكراه الحنون إلى نخيل الواحات السورية[٣]، «وحور البساتين على ضفاف نهر العاصى».

جاء عرب المشرق إلى إسبانيا ومعهم أنماط حياة أسلافهم، وحافظوا على أشكالها، وبقيت مدة طويلة دون أن تمس، وكان من الضرورى أن يتمثلوا أرض شبه الجزيرة الإيبرية فى بطء، وأن يكيِّفوا حياتهم مع واقعها تدريجاً، وأن يتصلوا اجتماعياً مع السكان

الأصليين، صلات كانت فى البدء متقطعة عمداً، ثم أصبحت ضرورية ومستمرة مع الزمن، لأن هؤلاء أخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا، وأدى هذا كله إلى أن تفقد التقاليد العربية الأصلية تدريجاً شيئاً من حدتها، أو إن شئت ارتضت مؤثرات لم تكن بمنجى من آثارها، ولو أنها حافظت فى الوقت نفسه على مكانتها الرفيعة، وتحقق معها النظرية التى دافع عنها العالم الفرنسى تين Taine، واشتهرت فى القرن التاسع عشر الميلادى وهى : انحلال الأجناس، وإطار الحياة الطبيعى، والظروف التاريخية.

وأيضاً وجد التقليد المشرقى فى إسبانيا دعماً وعمقاً منذ تولى عبد الرحمن الداخل الإمارة، وجاءت به الجماعات العربية التى وصلت متفرقة، جذبهم إلى الأندلس النجاح فى إقامة دولة أموية على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ومن السهل أن نتتبع حركة سير كثير من أولئك المهاجرين، أو الداخلين كما كان يطلق عليهم فى العربية إذ ذاك، فى أنساب الشخصيات الغفيرة، التى تزدحم بها كتب التراجم الأندلسية، أو قوائم الأنساب، ويجىء ابن حزم بكتابه «جمهرة أنساب العرب» فى طليعة هؤلاء المؤلفين.

كون هؤلاء المهاجرون، إلى جانب أولئك الذين انحدروا من سلالات «الجند» واستقروا فى إسبانيا من قبل، طبقةً اجتماعية عربية أطلق عليها اسم «الشاميون»، على حين أن العرب الذين

وصلوا مع الفتح أو بعده مباشرة، وكانوا أول من شارك فى الحياة الاجتماعية، تجمَّعوا فى طبقة أخرى تخالف تلك وحملوا اسم **«البلديون»**.

ومضى زمن غير قصير بعد وصولهم إلى شبه الجزيرة، قبل أن تهدأ بين الاثنين عصبياتهم القبلية، والخصومات المترتبة عليها، وجاءوا بها معهم كاملة من المشرق إلى المغرب، وقبل أن يقضوا على النزاع العربى القديم الكامن بين القيسيين واليمنيين[٤]، وأخذ فى إسبانيا على امتداد سنوات طويلة، وعلى بعد آلاف الأميال من منشأ أهله، أبعادا خطيرة، فاقت فى بعض الأحايين كل حدّ.

وعلى أى حال ألَّف بغض العباسيين بين شمل الجماعات العربية الأصل، التى التفت فى شبه جزيرة إيبريا تحت الحكم الأموى، خلال القرون الأولى من الفتح الإسلامى، وأى ثورة تفجرت فى إسبانيا مناهضة للعرب، كانت تلتف دائما حول راية سوداء رمز الخلفاء العباسيين فى بغداد، ترفع فى هذه المناسبة دون اقتناع كبير بما ترمز إليه، ودون أن تكون الثورة مطلقا وليدة دعاية قادمة من آسيا، ذلك أن العباسيين سرعان ما انصرفوا عن التفكير فى ضم إسبانيا إلى دولتهم، ولم تكن أوربا القريبة منهم تثير اهتمامهم فى شيء، إلا على صورة محدودة جداً، ومن الضرورى إذن أن نرد العلاقات السياسية التى قامت بين هارون الرشيد والأمبراطور **شرلمان**، وكانت فى الحقيقة متواضعة جدًّا، إلى

حجمها الطبيعى، حتى ولو جازفنا بمحو صورة رائعة، عزيزة علينا، استقرت فى أعماقنا منذ كنا طلاباً.

فيما يتصل بالجانب الثقافى فحسب يمكن أن نقول شيئا، فمنذ القرن التاسع الميلادى، امتزج المشرق العباسى، قليلا قليلا، وبطريقة غير مباشرة، فى ثقافة إسبانيا العربية، دون أن يهدف إلى محو التقاليد السورية على أرضها، وكانت ذات فعالية دائما، وإنما ليدخل فيها الجانب الأكبر من الاتجاهات والمستحدثات الحضارية فى بغداد.

وخلال ذلك حققّت إسبانيا الإسلامية، ولما تزل نشوى بتأثير المشرق، وحدتها السياسية، ووحدتها الدينية أيضا، عندما اختارت المذهب المالكى لتسير على هداه، وحل رسميا - تقريبا - محل مذهب الإمام الأوزاعى فى شبه الجزيرة، خلال إمارة الحكم الأول وبأمر منه، لأن بعض علماء الأندلس الذين ذهبوا إلى المشرق، وتلقوا العلم على يد الإمام مالك، نقلوا إلى الأمير حين عادوا إلى قرطبة، ما لمسوه عند عالم دار الهجرة العظيم من تقدير لملكة الأمويين فى المغرب.

ترك اتخاذ المالكية مذهبا فى إسبانيا العربية تأثيرا كبيرا فى مستقبلها الثقافى، واستقبل الأندلسيون المذهب الجديد بحماسة بالغة، لأنه حرر الدولة الأموية من الوصاية الدينية للعباسيين، وفى الوقت نفسه تأصل فى المغرب سريعا، وفيما بعد حقق نفس

البهاء الذى يميز الدراسات الفقهية المتصلة بالمذهب المالكى، ولم يخب نورها منذ ذلك الحين، ولا يزال الفقه فى المغرب، وحتى اليوم، يمثل جوهر النشاط الثقافى.

ومهما يكن من أمر، فقد شهدت إسبانيا منذ أن اتخذت المالكية مذهبا مولد مدرسة فقهية تجاوزت شهرتها، فى سرعة بالغة، حدود العالم الغربى، ولها أن تزهو بفقهاء كبار مشهورين، من الطبقة الأولى، أمثال: عبد الملك بن حبيب مؤلف كتاب «الواضحة»، ومحمد العتبى. أما المحاولات الوجلة التى قام بها بَقِى بن مَخْلد، واستهدف بها إدخال المذهب الشافعى فى إسبانيا، فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، فلم تؤد إلى أية نتائج، وبقيت بلا غدٍ، ومثلها فى ذلك المحاولات الأخرى التى بذلها الآخرون للانضمام إلى حركة رجعية مناهضة للحركة العقلية، وكانت تحاول حينئذ، على امتداد العالم الإسلامى، الوقوف فى وجه الخطوات المتقدمة التى حققها علم الفقه.

ولكن ذلك لا يعنى أن الأندلس ظل على الدوام بمنأى عن الصراعات المذهبية، لأن سقوط الخلافة القرطبية قريبا من نهاية القرن العاشر، ومع مطلع القرن الحادى عشر الميلاديين، مهد الطريق أمام صراع الأفكار، وفى هذا الوقت كان ابن حزم يجدد المذهب الظاهرى، ويسعى دائبا لكى تنتصر اتجاهاته على الفقهاء المحافظين من مواطنيه من أتباع المذهب المالكى.

يمكن القول بسهولة إن فترات الهدنة السياسية أكثر الأوقات ملاءمة لازدهار الفكر وتطوره على الدوام، ولفعالية التأثيرات الثقافية المتبادلة وخصوبتها، وسوف يكون أمراً ظالماً ألّا نفسح مكاناً متميزا للدور البالغ الأهمية الذى اضطلع به المشرق الإسلامى فى بناء الحضارة العربية الإسبانية، على أيام أمير قرطبة الرابع، **عبد الرحمن الثانى**، وبتعضيد قوى منه، وظل أميرا فى الفترة من عام ٨٢٢ إلى ٨٥٢م، وكان امتدادا لوالده الحكم الأول، أحد بناة الوحدة الأموية الأندلسية الأقوياء.

جاءت هذه الفترة الكافية من السلام النسبى فى إسبانيا على موعد مع حركة تجديد حقيقية، استطاع فيها المشرق العباسى ويحق، أكثر مما استطاعت التقاليد السورية فى الأندلس، أن يدَّعى الأصالة والفضل، وظل هذا كله موضع شك قليلا حتى أيامنا، ولكن مجموعة من الإشارات التاريخية القليلة، موجزة ومضطربة، ألهمت المستشرق الهولندى **دوزى**، وهو من أكثر المؤرخين المحدثين معرفة بإسبانيا الإسلامية، لوحة لعصر عبد الرحمن الثانى، لا نراها اليوم قديمة فحسب، وإنما نعتبرها فيما يتصل بالنتائج التى انتهى إليها غير دقيقة تماما فى أكثر من موضع.

حتى هذا الوقت* لا نملك غير بعض الفقرات التى ترد موجزة

---

* وقت إلقاء المحاضرة عام ١٩٣٨م.

فى الحوليات المختلفة، مما يحول دون دراسة متعمقة لهذا العصر تُبنى عليها، وكان حاسما فيما يتصل بتطور الثقافة الإسبانية، ولكن كان من حظى أن اكتشفت منذ أعوام قليلة وثائق عن تاريخ الأندلس السياسى، والأدبى، تحت إمارتى الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى(٥). وهذه الوثائق تفتح آفاقا جديدة للغاية، ومن وجهات نظر عديدة، لتكوين فكرة عن ازدهار ثقافى كنا نعتقد حتى الآن أنه حدث فيما بعد، متأخراً مئة عام على الأقل، على حين أنه فى الحقيقة بدأ يتفتح على بطحاء شبه الجزيرة منذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادى، بتأثير مباشر من الحضارة العربية فى المشرق على أيام العباسيين.

وعندما نقرأ الفقرات الأكثر دلالة فى هذه الوثائق الجديدة، يبدو لنا عبد الرحمن الثانى من خلالها حامى العلماء، وصديق الأدباء، ونصير الفنون، وشغوفا بكل ما يتصل بالفلك والتنجيم على نحو خاص، حتى أنه أوفد قبل أن يتولى الإمارة العالم القرطبى عباس بن ناصح إلى العراق، لكى يبحث له عن المؤلفات العلمية اليونانية والفارسية التى تُرجمت إلى اللغة العربية، وأن يقوم بنسخها له.

وكان هذا الأمير يجد لذة خاصة فى دراسة كتب الفلسفة القديمة والطب، لكى يرضى فضوله فى استطلاع المستقبل، وأحاط نفسه بجماعة من علماء الفلك، وخصص لهم رواتب عالية جداً، لكى

يراقبوا معه السماء وحركة الكواكب الأخرى، فيكتشف طوالعها حتى فى أتفه عوارض الحياة اليومية.

وتقدم لنا النصوص الجديدة المتعلقة بالأمير **عبد الرحمن الثانى** العاهل الأموى، موزع الوقت والفكر بين متابعة المنشآت العمرانية الكثيرة التى نعمت بها قرطبة على أيامه(٦)، وبين الصيد بالصقور فى سهل الوادى الكبير، يلاحق طائر الكركى، وكان أكثر الطرائد ابتغاء فى تلك الأيام، وبين دراسة السماء، ومتابعة شئون الدولة، وأيضا شهود الحلقات الأدبية، والحفلات الموسيقية، وكانت شحيحة حتى ذلك الوقت فى عاصمة الأمويين الإسبان.

يعود الفضل إذن فى تنظيم قرطبة على النظام العباسى إلى **عبد الرحمن الثانى**، وليس إلى سميه **عبد الرحمن الناصر**، كما كان يعتقد حتى وقت قريب، والذى حكم بعد ذلك بقرنين من الزمان، ولكى لا يبقى أمير قرطبة دون خلفاء بغداد، وكان يعرف الكثير عنهم، وعن نظم الدولة العباسية ومرافقها، فى تناسقها وتشابكها، من خلال الأوصاف التى جاءته بها عيونه، إثر عودتهم من المشرق، احتذى نهجهم، دون أن يجد فى العداوة التقليدية بين الأسرتين عائقا يحول بينه وبين السير على خطاهم، أو ينفر من تقليدهم. ولهذا نكتشف أن الإدارة فى قرطبة، فى خطوطها الرئيسية على الأقل، قامت منذ النصف الأول للقرن الثالث الهجرى على أسس منقولة مباشرة من نظام الإدارة العباسية، وهو

نفس ما حدث فى تنظيم خدم الأمير، بالمعنى القديم لهذا المصطلح، وجاء تقليدا مثيرا للغاية لما كان يفعله خلفاء بغداد، إلى جانب أنه نموذج إسلامى شرقى يرتبط بالتقاليد الفارسية لملوك الأسرة الساسانية.

أنشأ أمير قرطبة تشبُّها بالعباسيين، دار سك العملة، ودشّن استخدام الخاتم الرسمى، وأسس دار الطراز وتقوم على تنظيم مصانع النسيج التى تنتج السجاد والأقمشة، وكانت هذه تعدل من كل الوجوه أجمل أنواع النسيج المشرقى فى العصور الوسطى، ولم يكن لدى خلفائه ما يفعلونه غير الحفاظ على هذه التقاليد التى ابتدعها، وما أضافوه إليها لا يعدو التعديل والتحسين، ولو أنها فيما بعد سوف تأخذ طابعا إسبانيا خالصا، أمّا فى عهد عبد الرحمن الثانى، وخلال عشرات السنين الأولى التى تلت حكمه، فإن هذا التقليد لم يقدم أى اتجاه أصيل، وإنما بقى كما هو، وعلى نحو ما تلقاه الأندلس من المشرق.

ويقدم لنا المؤرخ العظيم أحمد الرازى، فى دقته المعتادة، ودون أن نحمل نصه أكثر مما يحتمل، أو نضطر إلى قراءة ما بين السطور، معلومات ذات أهمية بالغة عن الدور الراجح الذى لعبه الشرق الإسلامى فى تكوين الثقافة الأندلسية خلال القرن التاسع الميلادى، فكل ما يجئ من بغداد، أو المدن الأخرى فى

الإمبراطورية العربية، تستقبله إسبانيا الإسلامية بإعجاب، أو بتقدير واحترام على الأقل.

وفيما يرى الرازى، أدت المنازعات الداخلية العنيفة التى كانت العاصمة العباسية مسرحاً لها قبل أن يتولى المأمون الخلافة إلى نتائج غير متوقعة، فسهلت نزوح الجانب الأكبر من الكنوز الملكية التى نهبت من قصور بغداد إلى إسبانيا، ويقدم لنا مثلا على هذا بأن الأمير الإسبانى اشترى عقد السلطانة زبيدة الشهير بواسطة أحد وكلائه فى المشرق، وقدمه إلى الأميرة شفاء إحدى محظياته*.

وكانت الخزينة الخاصة بالأمير متخمة بالثروة، بفضل الدخول الأندلسية الهائلة التى يتحصل عليها، وتسمح له بشراء الجواهر الفريدة، والكتب النادرة، والأقمشة الثمينة، بأى سعر مهما غلا، وتعود نبهاء التجار أن يقوموا بهذه الرحلة الطويلة والخطرة إلى إسبانيا ليقدموا إلى عاهلها فرائد الأشياء وأثمنها.

ويمثل اختيار زرياب المغنى العراقى الإقامة النهائية فى إسبانيا أحد العوامل الأقوى حسما، دون شك، فى رد المملكة الأندلسية إلى المشرق من جديد، فى عهد هذا الأمير المستنير، وسجل العديد من المؤرخين وصول هذه الشخصية، ولكن على نحو أوجز بكثير

---

* تتبعت فى كتابى: ملحمة السيد، دراسة مقارنة فى فصل «السيد إنسانا» رحلة ونهاية جانب من هذه الجواهر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

مما نجد عند أحمد الرزاى فى تاريخه، ولما يزل مخطوطا. وأضفى قدومه على إسبانيا بريقا وهاجاً على كل ما يرد من المشرق، ومن ثم فهو يستحق ألاّ نكتفى بالإشارة إليه عجلين، ويستأهل منا وقفة مستأنية، وحديثا مستفيضا.

وُلد أبو الحسن على بن نافع فى العراق، عام ١٧٣ هـ = ٧٨٩ م وكان مولى للخليفة العباسى المهدىّ، ولُقب بزرياب، وهو «لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله»، وإذا صدقنا الذين ترجموا له، لأنه «شُبِّه بطائر أسود غرد»، واشتهر زرياب وهو فى سن طرية، لما يزل تلميذا لأسحاق المغنِّى والموسيقى الذائع الصيت فى بلاط بغداد، وبلغت شهرة زرياب حدا من الذيوع جعلت هارون الرشيد يطلب من أستاذه إسحاق أن يحضره معه ليختبر كفاءته.

وفى حضرة الخليفة الرشيد فاق الموسيقى الفتى كل ما يمكن أن يتوقع منه، حتى أن أستاذه غار منه وحسده، وتحركت فى أعماقه نوازع الشر، فطلب إليه أن يرحل بعيدا عن بلاط الخلافة، وأن يمضى إلى الغرب يلتمس حظه هناك، وخشى الطالب على حياته من أستاذه إن واصل الإقامة فى بغداد فعزم على الرحيل، وخلال إقامته القصيرة فى بلاط الأمير الأغلبى **زيادة الله الأول**، كتب إلى **الحكم الأول** أمير قرطبة، وسبقه إليها خبر براعته وتفوقه: «يعلمه بمكانته من الصناعة التى ينتحلها، ويسأله الأذن فى الوصول إليه،

فسر الحكم بكتابه، وأظهر له من الرغبة فيه، والتطلع إليه، وإجمال الموعد ما تمناه. فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع إلى العدوة، فكان معه منصور اليهودى المغنى رسول الحكم إليه، فثناه عن ذلك» ورغّبه فى أن يقصد ابنه عبدالرحمن الثانى، الذى تولى الإمارة بعد أبيه، وكتب إلى هذا بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه، وترحيبه بقدومه، وكتب إلى عمال البلاد أن يحسنوا إليه، وأن يوصلوه إلى قرطبة. وركب الأمير بنفسه، وخرج من المدينة لاستقباله، وغمره بالهدايا، وأنزله فى دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه وخلع عليه، وكتب له فى كل شهر مئتى دينار راتبا، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه، وكانوا أربعة، عشرون دينارا لكل واحد منهم فى الشهر، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونوروز خمس مئة دينار. وأن يُقطع له من الطعام ثلاث مئة مدى، ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار، فهدأ المهاجر بالاً، ووضع لتردده حدا، وعزم على الاستقرار فى إسبانيا بقية أيامه.

وسرعان ما فرض زرياب نفسه على المجتمع القرطبى بمواهبه

الموسيقية، وبثروته المادية أيضاً، وأحدث سخاء الأمير الإسبانى عليه دهشة كبيرة سرعان ما عمت العالم الإسلامى*، حتى أن موسيقيا آخر من بغداد عَلُّويَه الأعسر، شكا إلى الخليفة العباسى المهدى، وقارن بين حاله وحال زرياب، وكيف أن هذا يجوب شوارع قرطبة فى موكب فخم من الفرسان، ويملك ثلاثين ألف قطعة من الذهب، بينما يعيش هو حالة تعسة تكاد تفضى به إلى الموت جوعاً.

عندما وصل زرياب إلى إسبانيا عام ٢٠٦ هـ = ٨٢٢م كان يبلغ من العمر نيِّفا وثلاثين عاما، ومكث فيها كما أشرنا إلى أن وافته منيَّته عام ٨٥٧ م، وعبر هذه السنين كلها كان صاحب الأمر والنهى دون أدنى منازع فى كل ما يتصل بالأناقة، والشخصية التى تحتذى فى كل أنماط الملابس الجديدة، ولم يتوقف تأثيره فى مسلمى الأندلس عند هذا المظهر الخارجى فحسب، وإنما تجاوزه إلى أنماط حياتهم الخاصة أيضاً.

وطبقاً لما يقوله الذين أرخوا له من المترجمين، أظهر زرياب فى

---

* وأثارت دهشة الفقهاء فى قرطبة نفسها، وعبر عن ذلك عبد الملك بن حبيب فى أبيات من الشعر يقول فيها:

قد طاح أمرى والذى أبتغى ... هين على الرحمن فى قدرته
ألف من الحمر وأقلل بها ... لعالم أربى على بغيته
زرياب قد أعطيها جملة ... وحرفتى أشرف من حرفته

الأرض التى أحسنت استقباله، كموسيقى محترف، عبقرية مجدِّدة، فأنشأ معهداً للموسيقى، وسرعان ما أخذت الموسيقى الأندلسية سمات الأصالة كاملة، وسرى تقليدها، ولا يزال، فى كافة أنحاء المغرب الإسلامى قويًا وحاراً، وكانت قبله وثيقة القربى بالمدرسة المشرقية التى أذاع إسحاق الموصلى صيتها. وتدين له إلى جانب هذا باختراعات فنية أخرى، أوضحها العود ذو الأوتار الخمسة، وحل مكان العود ذى الأوتار الثلاثة، وكان يستعمل حتى ذلك الحين، واخترع «مضراب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مرهف الخشب».

ومهما يكن من أمر، فلعل التأثير الذى مارسه زرياب فى قرطبة بوصفه موسيقيًا، أقل من تأثيرات أخرى أعظم عمقاً، أحدثها بأرائه فى مجتمع الطبقة الأرستقراطية المعاصرة له فى إسبانيا الإسلامية، وهو يذكرنا فى الحال بشخصيات أخرى مارست مثل هذا الدور، مثل بترون Pétrone وبرُميل Brummel*، ودون شك يتشابهان فى بعض الجوانب مع ذلك المشرقى صاحب الذوق الرفيع، ولنلتقط، كيفما اتفق بعض الأمثلة من بين التجديدات

* بترون: كاتب لاتينى، من أصل غالى، تميز فى بلاط نيرون بأناقته، وشبقه وكتب Sataricon، وهو وثيقة دقيقة لدراسة العادات الرومانية فى القرن الأول الميلادى، واشترك فى مؤامرة فشلت، فانتحر بقطع شرايينه عام ٦٦م.

أما بروميل فانجليزى أنيق، ولد فى لندن، وعاش أعوام ١٧٧٨-١٨١٥، وشهر بحرصه على جمال زيه، وكان على أيامه يلقب بملك الأناقة.

التى ينسبها له المؤرخون، وأتى بها فى ذلك الوسط، وكان محافظاً حتى ذلك الوقت، يعيش نمطاً من الحياة ظل على حاله لم يمس تقريباً، على امتداد أكثر من قرن من الزمان، أى منذ تأسست إمارة الأمويين فى الأندلس.

بدأ زرياب يعلم القرطبيين طرائق الطعام الأكثر تعقيداً فى المطبخ البغدادى[٨]، ودرّبهم على طريقة إعداد مائدة راقية وأنيقة، لا تقدم فيها الأطباق فوضى، بلا نظام كيف ما اتفق، وإنما يجب البدء أولا بأطباق الشوربة والسواخن، تليها أطباق اللحم وألوان الطيور المتبلة بالبهارات الجيدة، وفى دقة كاملة، وأخيراً تأتى أطباق الحلوى من الفطائر المصنوعة من الجوز واللوز والعسل، والعجائن المعقودة بالفواكة المعطرة، والمحشوَّة بالفستق والبندق.

واختار غطاء المائدة من سُفْر الأديم الرقيق، وعليه يُقدم الطعام، بدلاً من الغطاء القطنى الخشن، لأن الأول سهل التنظيف، يزول عنه الوضر بأقل مسح. وأشاع بين الناس استخدام أوانى الزجاج الرفيع، بدل الأوانى المصنوعة من الذهب والفضة. وباختصار افتتح فى قرطبة، إذا أمكن القول، معهداً حقيقيًّا للجمال، يعلم الناس فن التزيُّن، وطرق الخضاب، وإزالة الشعر، واستعمال معجون الأسنان، وهندسة الرأس، إذ كان جميع من فى الأندلس «رجل أو امرأة يرسل جمته مفروقاً وسط الجبين، شاملاً للصدغين والحاجبين، فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو

. وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، وإسدالها إلى أصداغهم، هوت إليه أفئدتهم واستحسنوه»[٩]. ووضع نظاما لارتداء الأزياء المختلفة، وأوقاتا محددة لتغييرها، ولكل فصل زيه المناسب، فيرتدى الناس الملابس البيضاء صيفا فحسب، من مطلع حزيران، أى يونية، حتى نهاية تشرين الأول، أى أكتوبر، ويلبسون الملابس الملونة بقية أيام السنة. ويلبسون الأزياء الحريرية الخفيفة، غير المبطنة، والسترات ذات الألوان الزاهية، فى فصل الربيع، ويلبسون فى الخريف والشتاء الفراء والمعاطف ذوات الحشو، والبطائن الكثيفة، ينتقلون فيها تدريجا، حسب شدة البرد، من الأخف إلى الأقوى.

وكان الناس يلتمسون آراءه، ويطبقونها نصا وروحاً. وما من تأثير لأناقة الحضارة العباسية ورقيها يمكن أن يكون أشد نفاذاً، وأبعد عمقا، عما كان عليه فى قرطبة، ونزولا على رأى زرياب الذى لا يناقش، ويُقبل على علاته، غيَّر أهل البلاط وسكان المدينة أزياءهم، وأثاث بيوتهم، وأساليب طبخهم، حتى أن اسم بترون Petrone العربى ظل يتردد بعد ذلك لقرون عديدة، كلما ظهر فى صالونات شبه الجزيرة زى جديد أو مبتكر.

وتعود بداية التأثير القوى الذى قامت به المرأة فى أوساط المجتمع القرطبى المثقفة إلى عصر عبدالرحمن الثانى فيما يبدو،

وسرعان ماتبين له أن القصر الملكى يضيق كثيرا عما هو ضرورى زخرفة وسعة، لإيواء محظيات الأمير العديدات، وجميعهن اشتهرن فى المجتمع لا بجمالهن وثقافتهن فحسب، وإنما بتقواهن أيضا، وكل واحدة منهن أقامت فى قرطبة، على حسابها الخاص مسجدا أو سبيل ماء يحمل اسمها.

ويرى المستشرق الهولندى دوزى فى واحدة منهن تسمى طروب، حابكة دسائس، ورسم لها صورة قاتمة، غير أن المفضلات عند الأمير كن فيما يبدو، أو لئك اللائى أطلق عليهن اسم« المدنيات الثلاث »*، وتمتعن بمركز مرموق بوصفهن أمهات أولاد، لأنهن أنجبن من الأمير أولادا ذكورا، وإحداهن وهى فضل نشأت فى بلاط هارون الرشيد، وتلقت هناك تربية عالية فى الشعر والموسيقا لا نظير لها، ومن بغداد انتقلت إلى المدينة المنورة، وفى هذه المدينة الأخيرة استطاع رسل الأمير القرطبى أن يحصلوا عليها لحساب سيدهم، مع اثنتين أخريين لم تكونا أقل جمالاً ولا أدنى تربية.

وما أعجب تصاريف القدر!. ذلك إن إحدى هؤلاء « المدنيات الثلاث » ليست إلا فتاة من مقاطعة نبرة فى شمال شرقى إسبانيا، وقعت فى السبى صغيرة، ثم بيعت، وأرسلت إلى المدينة

* رواية المقرى فى كتابه نفح الطيب، جـ ١ ص ٢٤٩ ، ٣٥٠ طبعة إحسان عباس تجعل الحق إلى جانب دوزى.

المنورة فلم تبرحها إلا لتعود من جديد إلى موطنها ومهبط نشأتها، فتفتن بأغانيها، وملامح فكرها، سيد إسبانيا العربية.

أوضحنا، فيما أعتقد، على الأقل فى خطوط عريضة، التأثير الواضح الذى تركه المشرق بعامة، والحضارة العباسية بخاصة، خلال القرن التاسع الميلادى، فى مجتمع المدن الأندلسية، وأما النتائج التى نجمت عن هذا التأثير فلن نتوقف عندها طويلاً، يكفى أن نشير إلى التجديد الفكرى الذى أحدثه فى الجانب الإسلامى من شبه الجزيرة، ويتجلى ذلك واضحا فى **يحيى الغزال**، وهو شاعر لم يعن به الدارسون حتى الآن إلا قليلاً جدًّا، وأبدع أشعاراً ذات إلهام روحى أحيانا، وجاءت هجاء سليطا فى أحايين أخرى. و**عباس بن فرناس**، وهو عالم فلكى رسمى، «صنع فى بيته هيئة السماء، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود»، واحتال فى تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومد له جناحين، وطار فى الجو مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه، فتأذى فى مؤخره، ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكة، ولم يعمل له ذنبا»، ولكنه نهض دون أن يصاب بأذى تقريبا، فكان مثل إيكار Icare* تماما، وجاء بعده ثانى مبشر

* ابن ديدال فى الأساطير اليونانية، وصنع لنفسه أجنحة ألصقها فى جسمه بالشمع، وحاول أن يطير بها من جزيرة كريت، وما أن اقترب من الشمس حتى ذاب الشمع، وانفصلت عنه الأجنحة، فسقط فى البحر.

بالطيران فى أوائل العصور الوسطى.

بدأ تأثير الشرق العباسى فى إسبانيا ذات التقاليد الأموية، وظل حتى يومنا هذا احتمالا قائما لا يمكن البرهنة عليه بأدلة مقنعة، يعانى منذ مطلع القرن العاشر الميلادى، لأسباب ذات طابع سياسى ألمحنا إليها من قبل، مرحلة توقف إن لم تكن نهائية، فعلى الأقل تتصف بالانكماش، ويصبح من الصعب معها حينئذ تبين الإضافات التى حملها، لأن الأندلس عندما أعلن نفسه خلافة إنطوى على ذاته، ولم يعد يمثل دور المتلقى من الخارج، وإنما عمل على أن تشع هيبته، كشعب عظيم وذو حضارة راقية، خارج حدوده.

غير أن المبادلات التجارية بين الشرق والغرب واصلت سيرها نشطة دون ريب، وما من أحد يستطيع أن ينكرها، خلال هذه الفترة كلها، والتى تمتد حتى دكتاتورية المنصور بن أبى عامر، وكان بلاطه الأدبى يعتمد فى القليل على أديب مشرقى، وهو الشاعر صاعد البغدادى[١١]، ولكن هذه المبادلات سرعان ما عادت أشد قوة، وأنشط مما كانت عليه، إثر انتشار عقد الخلافة، ووجدت الظروف يومها مواتية فى قوافل الإسبان الأتقياء الذاهبون لأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، وفى المشارقة القادمون إلى الأندلس، تجذبهم إليه المراكز الثقافية، فى عواصم المقاطعات المختلفة، التى امتدت شهرتها إلى ما وراء البحار، حيث يلقون

الترحيب الحار بدءا، ويحاطون بالرعاية غالبا، وتجرى عليهم المرتبات فى سخاء.

وأدب التراجم، وأفرد أبوابا خاصة بالأندلسيين الذين ذهبوا إلى المشرق، وبالمشارقة الذين قدموا إلى الأندلس، يسمح لنا أن نؤكد، دون أن نجازف بالوقوع فى الخطأ، أن القرن الحادى عشر الميلادى والقرون الثلاثة التى تلته، شهدت علاقات ثقافية نشيطة، لا تقل أثراً فى أضعف الحالات عن العلاقات الاقتصادية.

أما **العلاقات الاقتصادية**، فأخذت تنمو مع الزمن نموا ملحوظا، وكانت الأساطيل التجارية فى موانئ الأندلس، إشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية، تعمل بين كل مدن البحر الأبيض المتوسط، وتحمل على ظهرها البضائع المصدرة، زراعية من ثمار الأرض الإسبانية، أو صناعية من نتاج المعامل فى المدن الإسبانية المختلفة، فالأغطية من جنجلة chinchilla، والسجاد من باسة Baza وكالسينة Calsena، وفراء السمور من سرقسطةZaragoza والخزف المذهب من مالقة، والمجوهرات المرصعة، والجلود المنقوشة، والسلاح من طليطلة Toledo، والورق السميك من شاطبة Jativa، وغير ذلك كثير.

وكانت هذه العلاقات متواصلة ومستقرة، وبخاصة مع مصر، وبدأ تأثيرها منذ القرن الحادى عشر الميلادى يأخذ شكلا قويًا

ونشطاً، وأوضح هذا الأمر المرحوم أحمد زكى باشا، فى مقال نشره منذ أكثر من ثلاثين عاما[١١]. وحتى فى النقوش العربية نفسها نجد ما يؤكد قيام هذه العلاقات الاقتصادية، فقد عثر فى مدينة المرية على شاهد يحمل اسم تاجر من مدينة الإسكندرية وافته المنية فى هذا الميناء الإسبانى عام ٥١٩ هـ - ١١٢٥ م، فى رحلة عمل إلى الأندلس، وجاءت فى الوقت الذى كانت فيه هذه المدينة الإسبانية تصنع أقمشة رائعة تحظى بشهرة واسعة على امتداد العالم كله إذ ذاك[١٢].

* * *

وجاءت اللحظة التى نتصدى فيها لأفكار أكثر شمولا، فندرس الآن الخطوط العريضة التى جعلت الغرب الإسبانى يرتبط على امتداد كل العصر الوسيط بالتقاليد الثقافية التى ولُدت وتطورت، واستقرت أخيرا فى الشرق العربى، وبهذا المعنى ثمة برهان يفرض نفسه بدءا، ويعزل كل ما عداه، وهو ما أسهمت به إسبانيا من نصيب، على امتداد كل عصور تاريخها، وكان ضخما وغير مجحود، فى العمل الثقافى العملاق الذى يمثله الأدب العربى، سواء فى مجال العلوم الدينية أو العلوم اللغوية.

وعندما نعرض للأعمال الأصيلة الخالدة، أو الأكثر تواضعا من شروح الأعمال المشرقية، فإن الأندلس يستطيع أن يدعى لنفسه،

ومعه كل الحق، مكانا فى الصف الأول بين مقاطعات العالم الإسلامى الأخرى، ولنتحقق من هذا يكفى أن نقلب صفحات كتاب يتضمن تسجيلا لمؤلفات الباحثين والمؤلفين، مثل كتاب كشف الظنون لحاجى خليفة، أو كتاب آخر أقرب إلينا تاريخا مثل تاريخ الأدب العربى للمستشرق الألمانى بروكلمان، فنجد الأسماء الإسبانية تعرض متزاحمة، فى صفوف متراصة، خلال أى قرن من العصور الوسطى.

وفيما يتصل بالعلوم الدينية كالقراءات والحديث والفقه، أسهم العلماء الأندلسيون، دون توقف، على مر جميع عصور الإسلام الإسبانى، فى الجهد العظيم الذى بذله العلماء فى تفسير القرآن، وفى شروح الفقه، ولم تكن جهودهم موضع إنكار أبدا لا فى المغرب ولا فى المشرق على السواء. ويكفى أن نذكر هنا بعض الأسماء وبعض التواريخ، وهذه الأخيرة تبرهن على الجهد المتواصل فى نطاق هذه العلوم خاصة فى مجال الفكر العربى.

لقد بلغ علم القراءات فى إسبانيا قمته، من حيث التلاوة وقواعد القراءة، على يد أبى عمرو الدانى فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، وخلال القرن الذى تلاه مع محمد بن الرعينى الشاطبى وفيما يتصل بالتفسير يكفى أن نذكر القاضى ابن عطية، وألف تفسيره نحو ١١٥٠ م تقريبا، وانتشر سريعا، وعلى نحو واسع، فى كل من إسبانيا والمغرب على السواء. ويستطيع علم

الحديث من جانبه أن يزهو بمتخصصين أندلسيين فى مستوى جيد، سجلت أسماءهم كل عصور الثقافة الإسبانية مثل ابن وضاح، وقاسم بن أصبغ، وابن عبد البر، والقاضى عياض السبتى، نسبة إلى مدينة سبتة وغيرهم.

وكتب ابن سعادة المحدث نسخة جيدة الضبط من كتاب صحيح البخارى، فى مرسية، فى عام ٤٩٢ هـ، ووجدت توقيرًا كاملا، وتستخدم اليوم فى كل المغرب الإسلامى، كما أوضحت فى مقدمة الطبعة المصورة لها، ونشرتها عام ١٩٢٨[١٣]، وتعدل فى صحتها والثقة فيها، ماتعدله صحة التوراة المترجمة عن الأصل اللاتينى.

أما نشاط الفقهاء فلا ينفصل عن الأسماء التى ارتبطت بنشر المذهب المالكى، وأشرنا إليهم من قبل، ونضيف إليهم الآن بعض أسماء الأعلام من كبار الأساتذة، وأتوا فيما بعد، مثل: أبى الوليد الباجى وأبى الوليد بن رشد (جد ابن رشد الفيلسوف)، وابن عاصم، مؤلف كتاب، تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام، وقاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى، وغيرهم.

وازدهر فقه اللغة العربية، بالمعنى التقليدى الصرف، ازدهاراً مدهشاً، بفضل علماء أنفقوا كل حياتهم فى وطنهم وبفضل آخرين من الكثرة بمكان، رغبوا فى الرحلة إلى المشرق، لكى ينهلوا من منابع المعرفة نفسها هناك، مثل ابن مالك صاحب الألفية، وأتى

فيها على قواعد النحو العربى كلها فى ألف بيت من الشعر. وقد ولد فى مدينة جيان بالأندلس، وليس فى دمشق على خلاف ما يتردد وهما، وغادر مسقط رأسه؛ ولم يزل يافعا، إلى المشرق، وأقام فى سورية إلى أن توفى عام ٦٧٢ هـ = ١٢٧٤ م وسار فى طريقه، بعده بنصف قرن من الزمان، مواطنه اللغوى الشهير أبوحيان، وبعد أن درس فى مدينة غرناطة مسقط رأسه، وفى مالقة والمرية على التوالى، استقر به المقام فى القاهرة، حيث درس وأتقن اللغات التركية والفارسية والحبشية، ووزع نشاطه فى العاصمة المصرية بين التفسير والفقه وعلم اللغة، وخلف إنتاجاً هائلا، وفيها توفى عام ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م.

وفى مجال دراسات فقه اللغة العربية تحتل المكانة الأولى شخصية إسبانية، وأعنى به ابن سيدة المرسى، نسبة إلى مدينة مرسية، وكان ضريراً وعاش فى القرن الحادى عشر الميلادى فى رعاية الأمير مجاهد، صاحب دانية، ولم يغادر إسبانيا أبداً، وألف معجمه المخصص فى اللغة، ورتب ألفاظه بحسب الموضوعات المتقاربة، وهو كتاب ضخم يقع فى سبعة عشر جزءاً، ويتفق مع أدق قواعد فقه اللغة التى وضعها كبار العلماء المشارقة فى هذا المجال، وعبثاً نحاول أن نجد فيه صدى الاصطلاحات اللغوية التى أدخلتها إسبانيا العربية، أو شيئاً من لحن العامة وهو ما يقع فى لغة التخاطب بين عامة الناس.

وفى مجال الأدب اشتهرت فى شبه الجزيرة الإيبرية أسماء لا تزال مألوفة فى أسماع المشارقة حتى الآن مثل: ابن عبدربه مولى الأمويين فى قرطبة، وتوزعت حياته بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وأعظم مؤلفاته العقد الفريد*، وهو موسوعة ضخمة، تأثر فى تأليفها بكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة إلى حد بعيد، وجل مادته مشرقى، ولم يتح للثقافة الأندلسية أن تحتل فيه المكانة التى أصبحت تستحقها ومنها كذلك أبو على القالى، وهو عراقى الأصل، واستقر به المقام فى إسبانيا، وسوف يتولى تربية الحكم الثانى، خليفة المستقبل، وهو أمر جدير بالملاحظة، وكان إلى أدبه على قدر واسع من الثقافة لا مثيل له، وكتابه الأمالى يعتبر من بين ذخائر التراث. ومنها أبو بكر الطرطوشى نسبة إلى طرطوشة، وقبل أن توافيه المنية فى الإسكندرية، وضع بحثاً فى الأخلاق السياسية، أعطاه عنواناً «سراج الملوك» ومن جانب آخر، فإن مقامات الحريرى الذائعة الصيت، عرفت شهرة واسعة فى إسبانيا، إبان حياة مؤلفها نفسه، وبعد مضى قرن من الزمان عكف الشريشى، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، وهو من مدينة شريش Jerez على شرحها وتفسيرها.

أما الشعر العربى وتعود بدايته، كالمعلقات وديوان الشعراء

* درسنا كتاب العقد الفريد، منهجه ومصادره فى كتابنا دراسة فى مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم)

الستة الجاهليين، إلى العصر الجاهلى، فعرف فى شبه الجزيرة الإيبرية شراحاً عاكفين ونابهين، وأهمهم جميعا **الأعلم الشنتمرى** نسبة إلى شنتمرية الغرب Santa Maria de Algarve، وهى مدينة صغيرة تقع حالياً على ساحل البرتغال الجنوبى، غير بعيد من مدينة شلب Silves الأندلسية، واشتهر سكانها خلال العصور الوسطى بالبلاغة فى القول، والفصاحة فى الحديث، وخلو عربيتهم العادية من اللحن، وقبل الأعلم شرح أستاذه **الإفليلى**، فى قرطبة، فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، ديوان المتنبى.

كانت الغاية من الإشارات التى أتينا عليها فيما سبق، وجاءت إلى حد ما جافة بالضرورة، أن نظهر إلى أى مدى أثّر ارتواء المشرق والكلاسيكية العربية فى الاهتمامات الثقافية فى إسبانيا العربية على مدى كل العصور، وحتى حين لا تكون طاغية، وتفسح المجال أمام أشد مظاهر الفكر الإسبانى أصالة، تبدو وكأنها بالغة الأثر فى الجانب الأكبر من الفروع الأدبية، وما أروع الدور الذى لعبته فى صقل الثقافة العربية فى إسبانيا.

وهكذا نجد أنفسنا مساقين إلى محاولة سبر سريع للعصر الذهبى فى الأندلس، من خلال الشعر الفنى، وأستعمل كلمة فنى عمداً، تمييزا له من الشعر التعليمى، وفى دراسة قريبة، جادة وعميقة، قام المستشرق الفرنسى هنرى بيريس بتحليل مواضيعه

الرئيسية فى دقة علمية لا مزيد عليها[١٤]*، وكانت هذه المواضيع عديدة، ولم تستلهم الطبيعة فحسب، وهى بالغة الجمال وموحية، وإنما دارت أيضا حول الحب والصداقة، والمديح والهجاء، واللذة والألم، والتفاؤل والإحساس الفاجع بالحياة. وكلها مستقاة على نحو ما، وفى ذكاء، من ماضى الإسلام الأندلسى فى عصوره المختلفة، ومن القرن الحادى عشر بخاصة.

وهذه الموضوعات تكشف بقوة، وغالبا على النقيض من الاعتقاد السائد، وجاء وليد أحكام مسبقة، عن ملمح من الأصالة العريقة، وعن شعراء يتمتعون بشخصية قوية، لم تترك التأثيرات القادمة من بعيد بصمات واضحة فى إبداعهم، أو تلاشت قبل أن تبلغهم، وتعكس مسجلة فى الوقت نفسه ذكاء ذاتيا، ووسطا متميزا، تضافرت ظروف عديدة على أن تجعل منه بقوة الأشياء مجتمعا آخر يختلف تماما عما عليه الحال فى عواصم المشرق.

ولكن ذلك كله لا يحول دون القول بأن هذا الشعر فى مجموعه، وحين ننظر إليه إجمالاً، بقى فى جوهره شرقيا وتقليديا إلى حد بعيد. وحتى أعتقد، زيادة على ذلك، أنه يبدو أحيانا وكأنه مجرّد

---

* ترجمت هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: «الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف»، وكما نرى من العنوان فإن الدراسة تهتم أصلا بدراسة الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر الميلادى. (المترجم)

تدريب لغوى، إن صح القول، لشعب لم تكن العربية الفصحى لغته القومية واقعا، ويريد أن يبرهن على أنه برع فيها وتميّز، وهو ما يذكر عفو الخاطر بالأجوبة الجيدة التى صاغها الشعراء أوفيد Ovide وكاتول Catulle، وهوراس Horace خلال عصر انحطاط اللاتينية*، وعندما يهتم الشعب الإسبانى المسلم بالدفاع المستمر عن اللغة العربية وتمجيدها، فى عناد وإصرار، فإنما يود أن يعبر من خلال ذلك كلة عن تفانيه وتعلقه بالمثل الأعلى، الأخلاقى والفكرى، الذى تحمله معها، وكانت مطيته إلى عالم الإسلام الفسيح، ولكن الشعب أيضًا كان يشعر أحيانا دون أدنى شك، أنه قيد نفسه بهذا التحديد وارتضاه عن طيب خاطر، وشد وثاقه بنفسه.

وأحيانا دون أن يفك الوثاق نهائيًّا كان يفلت منه فى الوقت المناسب، ليستنشق الهواء طلقا، ويلتقط أنفاسه مطمئنا، فتحرر من بحور العروض التقليدية الطاغية، وابتكر إطارات أكثر مرونة من الزجل والموشحة، لكى يودعها من الموضوعات ما تجرى به

---

* أوفيد، شاعر لاتينى (٤٣ ق. م - ١٧م)، له عدد من الكتب ودواوين الشعر، تدور حول الحب، منها: فن الحب، وغراميات.

* كوتول، شعر لاتينى (٧٨-٥٤ ق. م) جاءت أشعاره أنيقة وصادقة، ولكنها متحررة إلى حد بعيد.

* هو راس، شاعر لاتينى مشهور (٦٥ -٨ ق. م) وكتابه فن الشعر أشهر مانظم، وله قصائد أخرى تتميز بالشكل الدقيق والعفة، وهى نموذج للرقة والذوق الرفيع. (المترجم)

شياطين شعره إلهاما، وفى عفوية، فتجىء أقرب ما تكون إلى ذوقة نغمًا وصقلا. ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادى؛ وفيها بعد ذلك بقليل، حين كان أدباء المشرق يتناقلون سرًا، وفى تحفظ، أناشيد شعبية، ذات تعابير جديدة تماما، لفتت الأنظار المحاولاتُ التى كان يقوم بها الشاعر الأندلسى مقدم بن معافى القبرى، لوضع أوزان جديدة، أقل صرامة من العروض التقليدى.

ويجب أن نعترف بأن مثل هذه الأعمال، وكانت جديدة كل الجدة، لم تمس فى شىء مستوى الإبداع الشعرى فى الجانب التقليدى فى إسبانيا العربية، وكانت تحترم قواعد اللغة من نحو وصرف، وصادفت نجاحا عاما فى الغرب، وشيئا فشيئا لقيت مثل هذا الصيت فى الشرق، ودفعت الشعراء هناك إلى محاكاتها، وحتى ألهمتهم شروحا وتفاسير حقيقية لها. ولا يجب أن نمر بالأمر عابرين حين نتذكر أن المخطوطة الوحيدة التى نعرفها لديوان الشاعر الشعبى الأندلسى العظيم ابن قزمان، وعاش فى قرطبة، فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى، إبان حكم المرابطين، نُسخت فى مدينة صفد فى فلسطين، وتولى شرحها صفى الدين الحلى، وهو كاتب شرقى معروف من القرن الرابع عشر الميلادى.

ومع أن التحرر من قيود الكلاسيكية الصارمة أقل عسرًا فى مجال المعمار، إلا أن المشرق ترك أيضًا بصماته واضحة بعمق، والأندلس شاهد بالغ الروعة على هذا، فى الجوانب الزخرفية من

آثار إسبانيا الإسلامية، وبالتالى فى آثار المغرب خلال العصور الوسطى.

وليس بوسعنا أن نقدم هنا معلومات مفصلة ودقيقة من الوجهة التقنية، كما هو مفترض ومطلوب، عن التأثيرات الشرقية التى يمكن أن نضع يدنا عليها، ونحن ندرس أهم الشواهد التى وصلتنا من معالم الفن الإسبانى العربى لأن مثل هذه الدراسة الفاحصة قام بها فى نجاح، خلال الأعوام الأخيرة، كثيرون من كبار مؤرخى الفن الإسلامى الغربى البارزين، وسوف نقنع بأن نردد النتائج الجوهرية التى انتهوا إليها.

خضع الفن الإسبانى العربى، فيما يبدو؛ لتأثيرات عراقية ملحوظة، لا يجرؤ أحد على إنكارها اليوم. ويتجلى ذلك واضحا، قبل أى شيء، فى المسجد الجامع بقرطبة، من خلال التجديدات المتتالية التى أجريت على هذا البناء الوقور، وتلقىّ هذا التأثير، فى بعض الأوقات، بواسطة إفريقية، أى تونس المعاصرة، وتعتبر «محط انتظار على الطريق الممتد من بغداد إلى الأندلس»، وفى لحظات أخرى تلقاها من مناطق أبعد، «عن طريق فسطاط ابن طولون، أو القاهرة على أيام أوائل الفاطميين».

يقول جورج مارسيه فى مقال رائع له: لا يبدو تأثير الشرق الدائم فى إسبانيا، على أيام الخلافة، من خلال الأبنية وزخرفة العمارات، وإنما يطل أيضا من خلال الفنون الصناعية، حيث

تتعكس تلك النماذج الوافدة. ولا يزال خزف مدينة الزهراء بكمياته المذهلة فى انتظار من يدرسه، فى تقنيته، وزخارفه، وامتزاج ألوانه، وأصوله العراقية، أما صناديق العاج، مفخرة مصانع الخلافة، فاقتبست مواضيع زخرفتها من قائمة الفن الأسيوى التقليدية: مناظر الصيد، وحفلات الموسيقا، ومجالس الهوى(١٥).

هذا التأثير المشرقى فى الفن العربى الإسبانى؛ وكان فعالا دوْما، ومتسلطا فى بعض الأحيان، ويظهر على هذا النحو من خلال التعبير الشعرى والمعمارى عند مسلمى شبه الجزيرة، لم يكن بأقل فاعلية على ما يبدو فى تطوّر الفكر الأندلسى. وتفخر إسبانيا المعاصرة بتلك الجهد الفلسفى، وبالنزوع الصوفى، فى عصورها النشوى بروح الإسلام، وتطالب بذلك كله، وتراه من تراثها الثقافى، وتفسح له من عنايتها مكانا، فتضع ابن رشد، وابن سبعين، وأيضا موسى بن ميمون، إلى جانب فلاسفتها الآخرين، أمثال سينيكا Séneca، وتريسا دى أبلة Tresa de Avila، ولم يحل هذا دون أن يعترف ميجيل أسين بلاثيوس* العلامة المتخصص فى

---

* سينكا (٣-٦٦م) ولد فى قرطبة، ونشأ وعاش فى روما على أيام نيرون، وكان مؤدبا له، وانتحر بأمره، وخلف عددا من الدراسات الهامة فى الفلسفة، واشتهر باسم سينيكا الفيلسوف تمييزا له عن أبيه، وكان عضوا فى مجلس الشيوخ فى روما، ويحمل اللقب نفسه، والشهير بالخطابة والبلاغة.

* أما تريسا دى أبلة (١٥١٥-١٥٨٢) فراهبة إسبانية، متصوفة، وشاعرة رقيقة، قل=

دراسات الفلسفة الإسبانية العربية فى العصر الوسيط على أيامنا، بعد معاناة طويلة فى مؤلفات رؤساء تلك المذاهب والاتجاهات: «إن تاريخ الفكر الفلسفى فى إسبانيا الإسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الإسلامية المشرقة، دون أن تكون له بالتراث المحلى صلة حقيقية يقوم عليها الدليل[١٦]».

وهذا التأكيد، ولا تنقصه القوة أو الوضوح، يبلغ كل مداه، ويصبح أكثر أهمية، إذا أضفنا إليه أن الفلاسفة المسلمين، فى الشرق أو الغرب، كانوا من علماء الكلام فى الوقت نفسه، ولم يكن ممكنا فى إسبانيا، فى نطاق المذهب المالكى المتشدد والمعادى للتجديد، إفساح المجال دوما، دون مخاطرة، أمام الاتجاهات المتحررة، مهما تخفت، والتى ظهرت واستقرت تحت ستار المذهب الشافعى فى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، وفيما يتعلق بالفكر الفلسفى الإسبانى يمكن أن نقول باختصار إن نموه جاء متأخرا فى الغرب الإسلامى، ولم يأخذ فى الظهور فعلا إلا خلال عصر الموحدين.

ومن الضرورى بلا شك ألا نصمت عن ذكر التأثيرات التى لم تكن مشرقية فى نوعيتها، مثل تأثيرات العلماء اليهود

= من يجاريها من شعراء عصرها، وخلفت وراءها عددا من دواوين الشعر، وتأملاتها، وآخر ضمنته قصة حياتها.

* توفى أسين بلاثيوس عام ١٩٥٤، أى بعد أعوام من محاضرة المؤلف.

الأندلسيين، والذين طرحوا، قبل مواطنيهم المسلمين، مشكلة التوافق بين الدين والعقل، للوصول إلى حلول مختلفة لهما.

أما حميًا التصوف فمن الراجح، فيما يبدو، أنها وجدت ما يبررها فى الظروف التاريخية بخاصة، فمنذ مطلع القرن الثانى عشر الميلادى، وحتى سقوط مملكة غرناطة العربية عام ١٤٩٢م، لقى اندفاعها الجسور ما يعينه ويغذيه، لا فى تقاليد الجهاد واستؤنف ضد مسيحيى الشمال فى إسبانيا، وإنما - وهو الاحتمال الأقوى - فى تقبل المسلمين الإسبان فى الأوساط التقية لنظام الرباط، وتحمسهم له بخاصة، ففى ذلك الاعتكاف الرهبانى كانوا يوزعون أوقاتهم بين ممارسة الزهد والتدريب العسكرى، وهو ما يذكرٌ فى كثير من جوانبه بالمثل الأعلى، وهو رهبانى وحربى فى الوقت نفسه، عند منظمات الفروسية الأولى لمسيحية العصور الوسطى.

وأيضًا، ودائما عن طريق الشرق الإسلامى، أمكن نسخ بعض مؤلفات الفكر الإغريقى الشهيرة، فى العصور الكلاسيكية والهلينية، لحساب مراكز الثقافة فى إسبانيا العربية، وأشرنا من قبل إلى الدور الذى اضطلع به عبد الرحمن الثانى، فى إرسال من يبحث وينسخ له فى العراق تراجم المؤلفات العلمية القديمة، من ثمار فارس واليونان، وإلى سليله الحكم الثانى، وحتى قبل أن يعتلى عرش الخلافة عام ٣٥٠هـ= ٩٦١م يعود الفضل فى الجهود القوية

التى بذلها فى هذا الجانب، وتركت أثرا حاسما فى توجيه الفكر الإسبانى فيما بعد ذلك من أعوام، وبخاصة فى مجالات الطب، والعلوم الرياضية.

وكان هذا الخليفة طبقا لما يرويه بالحرف **صاعد الطليطلى**، فى كتابه طبقات الأمم، وهو كاتب عربى إسبانى من القرن الحادى عشر الميلادى: «هو الذى عمل على جلب المؤلفات الهامة النادرة المتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة، من بغداد ومصر وأماكن أخرى فى الشرق، وجمع منها فى أواخر حكم أبيه، وطيلة حكمه نفسه، عددًا يضاهى تقريبا العدد الذى جمعه الخلفاء العباسيون برمتهم، فى وقت أطول بكثير»[١٧].

وبهذه الطريقة كوّن **الحكم الثانى** مكتبة هائلة فى قصره بقرطبة تضم ما لا يقل عن أربع مئة ألف مجلد، وعددُ الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفى كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لاغير، ونظم شبكة حقيقية من الباحثين عن الكتب والسماسرة والنساخين يجوبون العالم الإسلامى طوله وعرضه، لحساب العاهل الإسبانى، بحثا عن المؤلفات يشترونها أو ينسخونها، وجند فى قرطبة نفسها عددا كبيرا من «الحذاق فى صناعة النسخ، والمهرة فى الضبط، والمجيدين فى التجليد والزخرفة»، استقدم بعضهم من صقلية، وحتى من بغداد، يعملون تحت إشراف موظف كبير من الصقالبة

العاملين فى قصر الخلافة، لإثراء هذه المكتبة الرائعة بنفائس المؤلفات دواما.

وسرعان ما أخذت الطبقة الأرستقراطية فى العاصمة تقلد العاهل الأموى بإنشاء مكتبات فنية خاصة بهم فى قصورهم، ويروى لنا أحد المؤرخين أن مئة وسبعين امرأة كن يعملن يوميا، إذا ذاك، فى كتابة نسخ من القرآن بالخط الكوفى، فى الربض الشرقى من مدينة قرطبة فحسب[١٨].

وكانت عاصمة بنى أمية فى إسبانيا، إبان منافستها المجيدة مع عواصم الشرق العربى، تتمتع فى داخل البلاد وخارجها، بشهرة المجدّ فى طلب العلم، ولم تكن هناك أية مدينة أخرى فى شبه الجزيرة تحلم بأن تزاحمها فى هذا المجال، واحتفظت بهذه الشهرة حتى بعد سقوط الخلافة، وبخاصة تحت حكم المرابطين فى القرن الثانى عشر، وأوجز لنا ابن رشد هذا الواقع فى ملاحظة ذكية، أثناء مناظرة جرت فى مراكش بينه وبين ابن زهر فى حضرة المنصور بن يعقوب، أمير الموحدين.

«قال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : ما أدرى ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية»[١٩].

ولم يبق كتاب واحد من مجموعة الكتب الرائعة هذه، وجمعها فى القرن العاشر الميلادى، بدافع من رغبة واعية، أمير غنى، صديق للآداب والعلوم، ومنذ بضعة أعوام أشرت إلى مجلد منها يوجد فى فاس، ويحمل تاريخًا جديرًا بالتقدير، وهو عام ٣٥٩هـ– ٩٧٠م، وإشارة إلى أنه نُسِخ للخليفة الحكم الثانى، ودون أدنى شك فإن جانبًا محدودًا من تلك المخطوطات العديدة، ما زال يقبع فى خبايا مكتبات مجهولة، بعد أن أفلت من حملة إحراق الكتب العربية فى إسبانيا المسيحية، والتى قادها الكاردينال ثيسنيروس cisneros، عرّاف الملكة إيزابيل، فى مطلع القرن السادس عشر بعد أن انتهت حرب «الاسترداد» تمامًا.

ولكن هذه المكتبة الخليفية العظيمة تعرضت بعد إنشائها بقليل لعمليات بتر محزنة للغاية، عندما أراد المنصور بن أبى عامر أن يضع حدًّا للشكوك التى دارت حول استقامة معتقده، وأن يصد حركة المقاومة التى أثارتها أوساط قرطبة المحافظة فى الخفاء، فاضطر إلى حسم الأمر فى حركة مسرحية، كان فى قرارة نفسه أول من يدرك ما فيها من تدنيس للمحارم، ويقول لنا صاعد الطليطلى، إن دكتاتور إسبانيا العربية أمر «بأن تحرق وتتلف فى هذه المكتبة كل الكتب التى تعالج المؤلفات القديمة، فقدم بعضها طعمة للنيران، وبعضها الآخر ألقى به فى آبار القصر، أو خبئ فى باطن الأرض، وتحت الحجارة، أو أتلف بأساليب أخرى». إذ أن

هذه الكتب طبقًا لما يضيفه المؤلف نفسه، «لا ينظر إليها الفقهاء بعين الرضا، وينتقدها الكبار، وكان كل من يقرأها متهمًا فى نظرهم بالهرطقة، وملطخ بالزندقة»[٢١] ومن يدرى إلى أىّ مدى أوقف، على نحو محسوس، مسلك المنصور الانتهازى المؤسف، تقدم الغرب العربى منذ نهاية القرن العاشر الميلادى، فى الرحلة التى بدأها لإحياء الشعلة التى أسلمها إليه الشرق الإسلامى!

ومع ذلك، فإن التأمل الفكرى لعالم إسبانيا الإسلامية خلال العصور الوسطى بقى، دون ريب، وعلى الرغم من كبح جماحه الجانب الأكثر أصالة، والنتيجة الأشد وضوحًا، فى إبداع الثقافة الأندلسية، وليدة الثقافة المشرقية مباشرة، وقد كيفها عرب إسبانيا لتوائم بيئتهم الطبيعية والعرقية والاجتماعية، ويظل الإنتاج البكر لحضارة أخذت فى شبه الجزيرة الإيبرية تعى شخصيتها شيئاً فشيئاً، ولكنها تهتم دائمًا بالحفاظ على تقاليد الكلاسيكية سليمة، وعلى الصدارة الأدبية للغة العربية.

هذه الملامح، وهى مختلفة، وجاءت بالضرورة وليدة بنية التربية، والمناخ، والتمازج الذى طال عهده، والاندماج المتزايد بين عناصر السكان، بدأت منذ القرن العاشر الميلادى تعبرَ عن نفسها فى مختلف مقوّمات حضارة إسبانيا الإسلامية تلك، وبعد القرن الخامس عشر فى منطقة إفريقية تأثرت بإشعاعها.

إن استعمال نمط من اللباس متاح للجميع، وهو لون من الحياة

مشروط بالحضرية والميل إلى التجمع فى مدن وضياع، وتنظيم عقلى للخدمات المدنية وغيرها، «كل هذا يجب أن يحدث لتكوين شعب على حدة، ويستطيع القادم من مصر، أو سورية أو العراق، أن يشعر بين أفراده بالتوهان والبلبلة منذ اللحظة الأولى، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه كما لو كان فى بلده ذاته، أو يكاد، وسوف يدرك أن صفته مشرقيًا تخول له هيبة تهيئ له اعتبارًا واحترامًا يبرهنان له، فى بلاغة فريدة، على أن ما بين إسبانيا وغيرها من البلدان القريبة من روابط تشدها إلى مهد الإسلام أبعد ما تكون عن الانفصام.

وحتى آخر أيام مملكة غرناطة ظل إشهار النسب العربى الخالص الدليل الوحيد المعترف فى شبه الجزيرة للاعتراف بعراقة الدم الحقيقية، حتى أن المرء ليتساءل عما إذا كانت إسبانيا فى العصور الوسطى، وهى فى الطرف الأقصى من العالم العربى، لم تكن بالنسبة لهذا العالم نفسه، بين ولاياته الأخرى، ولاية مزدهرة ومتميزة على التأكيد، ولكنها مع ذلك تخضع للقاعدة العامة، فكانت مجرد ولاية معينة، حريصة ومنظمة، وتشارك فى الجهود المنسقة لرواد حضارة عربية واحدة، ظلت هى نفسها من قرطبة إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى بغداد.

ومع ذلك فمن الضرورى ألا نبالغ حتى فى هذا القدر من الأشياء، فمن المؤكد أن إسبانيا كانت ولاية من ولايات الإسلام،

ولكنها ولاية نائية، وفى بعض الحالات خاصة، فقدت قليلاً قليلاً الشعور المحدد والإيجابى، حتى الأخلاقى منها، ولم تعد تذكر البساتين السورية، ولا الواحات العراقية، أو المصرية، وتحولت بمضى الزمن إلى مجرد موضوعات أدبية، تحتفظ بها، وتحرص عليها، الأجيال من الكتاب والشعراء.

ولكن، كانت إسبانيا قبل كل شىء ولاية فى أقصى تخوم الإسلام، تقع فى أوربا نفسها، وفى احتكاك دائم بالمسيحية، داخل وخارج حدودها، مسيحية اختلطت بها، وعرفتها خير من أية دولة إسلامية أخرى، ومهما كان الذى تلقته إسبانيا الإسلامية من المسيحية ضئيلاً، وعلى العكس نقلت إليها الكثير من ثقافتها الذاتية، فقد أتاحت الفرصة لمزيد من التأثيرات المتبادلة بين الجانبين، وبدأ الإحساس منذ اللحظة الأولى، ولا يمكن لأحد إنكار وجودها أبدًا، أو الشك فى استمرارها مطلقًا، على امتداد كل قرون العصر الوسيط.

ولكل هذا سوف نظهر، فيما يلى، أو نحاول أن نبرهن على الأقل، أن مجاورة سكان الأراضى الإسلامية فى إسبانيا للغرب المسيحى، هى التى أعطتهم، قبل أى شىء، والوحيدة تقريبًا، الملامح الذاتية والأصيلة، على الرغم من تعلقهم القوى التقليدى بالمشرق.

● الهوامش والتعليقات :

(١) انظر كتابى : إسبانيا فى القرن العاشر، ص ٢٢.

(٢) جورج مرسيه : مختصر الفن الإسلامى، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٣) انظر : هنرى بيريس، النخلة فى إسبانيا، ملاحظات فى ضوء النصوص العربية، فى مجموعة مقالات مهداة إلى جود وفروا - ديمومبينس، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٢٥-٢٣٩.

(٤) ويرى دوزى، فى كتابه «تاريخ مسلمى إسبانيا»، الجزء الأول، أن هذه الصراعات لعبت دورًا بالغ الأهمية فى أحداث شبه الجزيرة الإيبيرية.

(٥) حول هذا النص وأنوى نشره مستقبلاً فى سلسلة من الوثائق غير المنشورة عن تاريخ الأمويين فى إسبانيا، انظر كتابى عن : تبادل السفارات، ص ٤.

(٦) وبخاصة الزيادات التى أدخلت على المسجد الجامع فى قرطبة وقد قدم لنا إيلى لامبير عرضًا جديدًا كل الجدة، معتمدًا على الوثائق التى قدمتها له : تاريخ المسجد الجامع فى قرطبة، فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، فى ضوء نصوص غير منشورة، حوليات معهد الدراسات الشرقية فى كلية الآداب بجامعة الجزائر، المجلد الثانى، باريس، ١٩٣٦، ص ١٦٥-١٧٩.

(٧) يوجد تعريف بزرياب فى دائرة المعارف الإسلامية، الملحق، ص ٢٨٥-٢٨٦، كتبه هـ. ج. فارمر.

(٨) لدينا الآن وثائق جيدة عن تركيب ونوع هذا المطبخ، ويعود الفضل فى هذا إلى كتاب عربى صغير طبع فى الموصل عام ١٩٣٤، بعنوان : «كتاب الطبيخ»، ويعرض له من بداية القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، ولدينا فيما عدا ذلك مختصران عن الطبخ فى الأندلس، وهما غير مطبوعين، ويبدو أنهما من عصر الموحدين.

(٩) أنخل جونثالث بالنثيا : الإسلام والغرب، ص ٤٨-٤٩، نقلاً عن المقرى فى نفح الطيب.

(١٠) خص المستشرق الفرنسى ر. بلاشير هذا الشاعر بدراسة أعطاها عنوانًا : أحد طلائع الثقافة العربية فى القرن العاشر : صاعد البغدادى مجلة هيسبيريس، المجلد العاشر، ١٩٣٠، ص ١٥-٣٦.

(١١) أحمد زكى : بحث فى العلاقات بين مصر وإسبانيا أثناء العصر الإسلامى، فى كتاب : تكريم كوديرا، ص ٤٥-٤٨١.

(١٢) انظر كتابى : النقوش العربية فى إسبانيا، ص ١١٦-١١٧.

(١٣) ليفى بروفنسال : صحيح البخارى، طبعة مصورة نقلاً عن مخطوطة لابن سعادة، الذى سكن مرسية عام ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩م، باريس، ١٩٢٨.

(١٤) هنرى بيريس : الشعر الأندلسى فى القرن الحادى عشر، ملامحه العامة وقيمته وثيقة، باريس، ١٩٣٦.

(١٥) جورج مرسيه : الفن الإسلامى الإسبانى، مجلة هيسبيريس، المجلد ١٣، ١٩٣٦، ص ١٠٧-١٠٨.

(١٦) انظر : أنخل جونثالث بالنثيا، تاريخ الأدب العربى الإسبانى، الطبعة الثانية، ص ٢٢٠.

(وله ترجمة، غير أمينة، إلى اللغة العربية بعنوان : تاريخ الفكر الأندلسى).

(١٧) الترجمة الفرنسية للكتاب، وقام بها ر. بلاشير، ص ١٢٥.

(١٨) انظر كتابى : إسبانيا الإسلامية، فى القرن العاشر الميلادى، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٢٠) انظر : ليفى بروفنسال : مخطوط من مكتبة الخليفة الحكم الثانى. فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، ١٩٣٤، ص ١٩٨-٢٠٠.

(٢١) صاعد الطليطلى : طبقات الأمم، ترجمة بلاشير، ص ١٢٦.